عنوان الشعوب وأساس الحضارة وغاية بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

الأخلاق ..تحقق سعادة النفس ورضاء الضمير وترفع شأن صاحبها

الأخلاق هي عنوان الشعوب، وقد حثت عليها جميع الأديان، ونادى بها المصلحون، فهي أساس الحضارة، ووسيلة للمعاملة بين الناس وقد تغنى بها الشعراء في قصائدهم ومنها البيت المشهور لأمير الشعراء أحمد شوقي :«وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت.. فإن هُمُو ذهبت أخلاقهم ذهبوا» وللأخلاق دور كبير في تغير الواقع الحالي إلى الأفضل إذا اهتم المسلم باكتساب الأخلاق الحميدة والابتعاد عن العادات السيئة، لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فبهذه الكلمات حدد الرسول الكريم الغاية من بعثته أنه يريد أن يتمم مكارم الأخلاق في نفوس أمته والناس أجمعين ويريد للبشرية أن تتعامل بقانون الخلق الحسن الذي ليس فوقه قانون، إن التحلي بالأخلاق الحسنة، والبعد عن أفعال الشر والآثام يؤديان بالمسلم إلى تحقيق الكثير من الأهداف النبيلة منها سعادة النفس ورضاء الضمير وأنها ترفع من شأن صاحبها وتشيع الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع المسلم وهي طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

وقد وصف الله عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في التنزيل بقوله «وإنك لعلى خلق عظيم». وعن أم المؤمنين عائشة لما سئلت رضي الله عنها عن خلق النبي عليه الصلاة والسلام، قالت : «كان خلقه القرآن» صحيح مسلم – عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا» – الحديث رواه الشيخان وأبو داود والترمذي.وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت : ما رأيت أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم – رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

الأخلاق في القرآن

كما تأكد ذكر الأخلاق في القرآن الكريم بصور شتى مثل العرف والمعروف والخير والصالحات والباقيات الصالحات والبر في الآيات الكريمة : «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون»، و«خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»، و«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»، و«التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين». و«والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون»، و«المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا». و«تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان». «يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون». و«يوم ينفع الصادقين صدقهم».

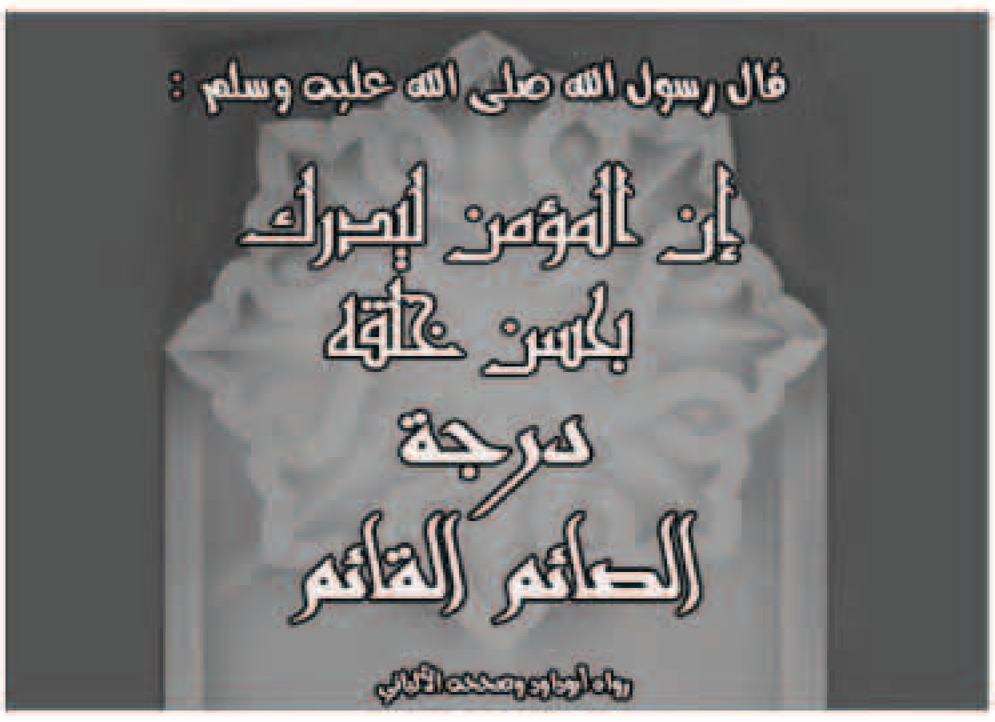
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إن المؤمن ليدرك
بحسن خلقه
درجة
الصائم القائم
رواه أبو داود وصححه الألباني

أنس بن مالك أكد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أحسن الناس خلقاً

ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء .. هذه أخلاق الإسلام

كما تظهر الأخلاق في وصايا لقمان لابنه في سورة لقمان، وآداب الاستئذان في «سورة النور آية 58» وما تلاها، وآداب التعامل مع الرسول والنهي عن النميمة والتنابذ بالألقاب إلخ في «سورة الحجرات وفي سورة الأحزاب آية 53». وأوامر الله للرسول «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» «سورة الضحى آية 9، 10». ووصايا الله للمؤمنين في «سورة الإسراء فيما يشبه الوصايا العشر في الآيات 22 حتى 39 ». ويمثل البيان الكامل لمدونة السلوك التي يجب أن يتبعها كل مسلم.

ويظهر عدم التمييز بين الرجل والمرأة في العمل الصالح في» الآية 97 من سورة النحل، و 40 من سورة غافر». وقيمة الإيثار والتضحية في «الآية 9 من سورة الحشر والآية 7 – 9 من سورة الإنسان». والأمانة «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا». والنهي عن الهمز واللمز» في سورة الهمزة وفي الآيات «ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين». والنهي عن الخيانة «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما». و«إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور». والدعوة إلى العزة والكرامة وعدم التهاون» ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين». و«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين». و«ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما». و«فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ».. والدعوة إلى الصبر والعزم «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» «ولم نجد له عزما».

الأخلاق في السنة

كما تظهر الأخلاق في الأحاديث النبوية. فقد روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا:«ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس». و«من حمل علينا السلاح فليس منا». و«ليس منا مَنْ بات شبعانا وجاره جائع». و«ليس منا مَنْ لم يحاسب نفسه كل يوم» «ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالقة من خالقه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره». و«ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ومن لم يعرف لعالمنا حقه». و«من خبب عبدا على أهله فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس منا». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه». أي شره. وجاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اتق الله حيثما كنت. وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». وقال صلى الله عليه وسلم «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا».وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» رواه مسلم. وقال سبحانه وتعالى فيما رواه رسول الله في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا» رواه مسلم. وقال رسول الله «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله». و«من لا يرحم لا يُرحم». و«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء». و«الحاقد والحاسد في النار». كما أن الإسلام نهى عن التطفيف والتخسير في الميزان وإبخاس الناس أشياءهم وهو فعل قوم شعيب ويقلدهم فيه باعة الروبابيكيا والفاكهة والخضر وغيرها.

والنهي عن اللواط والمثلية الجنسية وإتيان المنكر في الأندية كفعل قوم لوط. وكذلك نهى الإسلام عن الرشوة والمحاباة والمحسوبية كما ورد في حديث «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها». وحديث «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». و«لعن رسول الله الراشي والمرتشي». ونهى النبي عن المثلة «التمثيل بالجثث في الحرب» ونهى عن قتل الصبيان والشيوخ والنساء في الحرب، «اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا». وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعف الناس قتلة: أهل الإيمان». وفي آداب الذبح للحيوان والقتل في الحرب عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

الرفق بالحيوان

وفي مجال الرفق بالحيوان روى البخاري رحمه الله وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذكر : «أن امرأة بغيا من بني إسرائيل رأت كلبا في يوم حار، يطوف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها، فغفر لها» رواه مسلم. وعنه رضي الله عنه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا : يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا ؟، قال : «في كل كبد رطبة أجر» رواه البخاري.

وعن يعلى بن مرة قال: كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ جاءه جمل يخب حتى ضرب بجرانه بين يديه «أي جاء يمشي حتى وضع عنقه أمام النبي صلى الله عليه وسلم» ثم ذرفت عيناه. فقال ويحك: انظر لمن هذا الجمل، إن له لشأنا ؟!! قال فخرجت التمس صاحبه فوجدته لرجل من الأنصار فدعوته إليه فقال: ما شأن جملك هذا؟ فقال: وما شأنه؟ قال: لا أدري والله ما شأنه عملنا عليه ونضحنا عليه حتى عجز عن السقاية فائتمرنا البارحة أن ننحره ونقسم لحمه. قال: فلا تفعل هبه لي أو بعنيه. فقال: بل هو لك يا رسول الله فوسمه بوسم الصدقة ثم بعث به، وفي رواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: ما لبعيرك يشكوك ؟ زعم أنك أفنيت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره قال صدق. والذي بعثك بالحق قد أردت ذلك والذي بعثك بالحق لا أفعل. رواه أحمد.

كما حفل القرآن الكريم بآيات النهي عن الأخلاق السيئة والشريرة مثل سورة الماعون بأكملها، ووصف المطففين في سورة المطففين، ووصف المنافقين في سورة المنافقون والعديد من آيات القرآن الكريم، والنهي عن تزكية النفس، وأكل مال اليتيم، وأكل أموال الناس بالباطل، والسحت «المال الحرام»، وكنز الذهب والفضة والامتناع عن إنفاقهما في سبيل الله، واتباع الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأنعام والحرث، وتوعدت الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، والذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وحفلت بآيات الأمر بالقسط والعدل ولو على أنفس المؤمنين أو الوالدين والأقربين، والأمر بالوفاء بالعقود، وقولوا للناس حسنا.

دروس من سورة «الحجرات».. تحريم السخرية والغيبة وسوء الظن

«يا أيها الذين آمنوا، لا يسخر قوم من قوم، عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء، عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون».

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس. وهي من كرامة المجموع. ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس، لأن الجماعة كلها وحدة، كرامتها واحدة.

والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب: يا أيها الذين آمنوا. وينهاهم عن أن يسخر قوم بقوم، أي رجال برجال، فلعلهم خير منهم عند الله، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله.

وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد. وقد يسخر غير السوى من الرجل الفقير، والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المؤوف. وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام. وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم. وذو العصبية من اليتيم. وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة. ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين!

ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإيحاء، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها: «ولا تلمزوا أنفسكم».. واللمز: العيب. ولكن للفظة جرسا وظلا، فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية!

ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها، ويحسون فيها بسخرية وعيب، ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به. ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هذا. وقد غير رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أسماء وألقابا كانت في الجاهلية لأصحابها، أحس فيها بحسه المرهف، وقلبه الكريم، بما يزري بأصحابها، أو يصفهم بوصف ذميم.

ولأية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية في ميزان الله، وبعد استجاشة شعور الأخوة، بل شعور الاندماج في نفس واحدة، تستثير معنى الإيمان، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز: «بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان» فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان! وتهدد باعتبار هذا ظلما، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك: «ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم.

تحريم سوء الظن والغيبة والتجسس

«يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله، إن الله تواب رحيم».

أما هذه الآية فتقيم سياجا آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، في أسلوب مؤثر عجيب.

وتبدأ – على نسق السورة – بذلك النداء الحبيب: يا أيها الذين آمنوا.. ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهبا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك. وتعلل هذا الأمر: «إن بعض الظن إثم». وما دام النهي منصبا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلا، لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثما!

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ، فيقع في الإثم ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء، والبراءة التي لا يلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع. وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون!

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم في تربية الضمائر والقلوب. بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظن، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصبح الظن أساسا لمحاكمتهم. بل لا يصح أن يكون أساسا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم. والرسول –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إذا ظننت فلا تحقق».. ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم، وحرياتهم، واعتبارهم. حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه. ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم!

فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص! وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديموقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلا، وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير.

«ولا تجسسوا»

ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون: «ولا تجسسوا».

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات، والاطلاع على السوءات.

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء» من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم. وتمشيا مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب.

ولكن الأمر أبعد من هذا أثرا. فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي، وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية.

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال.

ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم. ولا يوجد مبرر – مهما يكن – لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات. حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس. فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم. وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم. وليس لأحد أن يظن أو يتوقع، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما، فيتجسس عليهم ليضبطهم! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة.

قال أبوداود: حدثنا أبوبكر ابن أبي شيبة، قال: حدثنا أبومعاوية، عن الأعمش، عن زيد بن وهب. قال: أتي ابن مسعود، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال عبدالله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به. وعن مجاهد: لا تجسسوا، خذوا بما يظهر لكم، ودعوا ما ستر الله.

وروى الإمام أحمد –بإسناده– عن دجين كاتب عقبة. قال:قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط، فيأخذونهم. قال: لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دجين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك! لا تفعل، فإني سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا مؤودة من قبرها».

وقال سفيان الثوري، عن راشد بن سعد، عن معاوية بن أبي سفيان، قال: سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء – رضي الله عنه – كلمة سمعها معاوية – رضي الله عنه – من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نفعه الله تعالى بها.

ديموقراطية وحرية

فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي! ولم يعد مجرد تهذيبا للضمير وتنظيفا للقلب، بل صار سياجا حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم، فلا تمس من قريب أو بعيد، تحت أي ذريعة أو ستار.

فأين هذا المدى البعيد؟ وأين هذا الأفق السامق؟ وأين ما يتعاجب به أشد الأمم ديموقراطية وحرية وحفظا لحقوق الإنسان بعد ألف وأربعمائة عام؟

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب، يبدعه القرآن إبداعا: «ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه».

لا يغتب بعضكم بعضا. ثم يعرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية. مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتا.. ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب!

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة: «واتقوا الله إن الله تواب رحيم».

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب. ويتشدد فيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– متمشيا مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.

في حديث رواه أبو داود:حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال –صلى الله عليه وسلم–: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال –صلى الله عليه وسلم–: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».. [ورواه الترمذي وصححه].

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقمر عن أبي حذيفة، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:قلت للنبي –صلى الله عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا «قال عن مسدد تعني قصيرة» فقال –صلى الله عليه وسلم–: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا. فقال –صلى الله عليه وسلم–: «ما أحب أني حكيت إنسانا وإن لي كذا وكذا».

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. قلت:من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية، ورجمهما رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما، سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب! ثم سار النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى مر بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار». قالا: غفر الله لك يا رسول الله! وهل يؤكل هذا؟ قال –صلى الله عليه وسلم–: «فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا منه. والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع، وانتهى إلى ما صار إليه: حلما يمشي على الأرض، ومثلا يتحقق في واقع التاريخ.